رسالة في الطريق إلى ثقافتنا
محمود شاكر: قراءة في خطاب التأسيس والغضب والتجاوز

A Message on the Way to our Culture Mahmoud Shaker: A Reading of the Foundation, Anger, and Transgression Letter

خالد فهمي إبراهيم *

khalidfahmy30@gmail.com

الملخص

تناولت هذه الورقة: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، لمحمود شاكر، وتقدِّم قراءة لخطاب التأسيس والغضب والتجاوز.

ورسالة شاكر عمل مؤسس مهم يصحُّ أن يكون أحد روافد إعادة تشكيل العقل العربيّ المسلم على قاعدة الهُوِيَّة الواقيَّة المنتمية.

وقد توقَّفت هذه القراءة أمام ما يلي:

0- مدخل: في مديح التأمل والدرس للكتب الملهمة

1- كليات الرسالة والعرض المضموني لها

2- مستويات التثاقف مع الرسالة (التعاطف / الغضب)

* أستاذ علم اللُّغة – كلية الآداب – جامعة المنوفيَّة.

خبير بمجمع اللغة العربية بالقاهرة.

3- خطـاب مـا يتبقـى من الرسـالة علـى طريـق إعـادة تشكيل العقل العربـيّ المسلم المعاصر.

وقد كشفت القراءة عن حضور مائز لحزمة مما يصلح للبقاء إسهامًا في تشكيل العقل العربي المسلم المعاصر.

<u>الكلمـات المفتاحيـة</u>: رسـالة فـي الطريـق إلـى ثقافتنـا؛ **محمـود شـاكر؛ تـاريخ الثَّقافة العربيَّة؛ التغريب والتبعية؛ غضب مرتقب؛ تشكيل العقل العربيّ المسلم.**

<u>Abstract</u>

This paper deals with: A message on the way to our culture, by Mahmoud Shaker, and provides a reading of the foundation, anger, and transgression letter.

Shaker's message is an important founding work that should be one of the tributaries to reshape the Arab-Muslim mind on the basis of the belonging protective identity.

This reading dealt with the following:

Introduction: In Praise of Meditation and Lesson for Inspirational Books

1- The entireties and content of message

2- Acculturation levels with the message (sympathy/anger)

3- The content of the remainder of the message is related to the way of reshaping the contemporary Arab-Muslim mind.

The reading revealed a distinct presence of a package, which is suitable for survival, as a contribution to shaping the contemporary Arab- Muslim mind.

This reading resulted in a set of important results:

First- The diversity of levels of sympathy with the message reveals its importance in contemporary cultural formation, particularly in the Islamic case.

Second- Acculturation of Dr. Saad Maslouh represented the most positive acculturations because of its critical and civilized vision.

Third- The message represented a pattern of institutional intellectual works produced by the awareness of the general civilizational plight that afflicted the Muslim nation, and which resulted in a civilizational decline.

Fourth- Reading and analyzing the message revealed a package of things that remains to serve the processes of shaping the contemporary Arab-Muslim mind on the basis of belonging identity, and appreciating languages, commonalities, and different cultures.

Keywords: **A Message on the Way to our Culture, Mahmoud Shaker, History of Arab culture, Westernization and Dependency, Anticipating Anger, Shaping the Arab-Muslim Mind.**

مدخل

في مديح التأمُّل والدَّرس للكتب المهمَّة

1/0 في الخبرة المعاصرة

تنبَّه عدد من المؤسسات الثقافيَّة الرسمية وغير الرسمية – منذ عدة عقود – إلى أهمية التَّوقف أمام مجموعات من الكتب المؤسسة في تشكيل العقل العربي في العصر الحديث، واتخذت خطوات عمليَّة في اتجاه إطلاق مشروعات تثقيفيَّة تكوينيَّة تهدف إلى تحليل الكتب العلامات في تاريخ الثقافة العربيَّة وغير العربيَّة، وتستخلص ما يمكن أن يطلق عليه خطاب ما يبقي!

وهذه المشروعات التي انطلقت منذ عقود كانت تذكر بطبيعة العقل العربي الذي نشط في أمة اشتهرت بأنها "أمة الكتاب" على حد تعبير آدم جاسك في مقدمة كتابه: [تقاليد المخطوط العربي، آدم جاسك، إعداد محمود محمد زكي، تقديم ومراجعة د. فيصل الحفيان، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، 2008م] (10/1)؛ حيث يقول:

"الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة حضارة كتاب، الكتاب فيها ذو قداسة خاصَّة، اكتسبها من الدِّين الإسلاميّ ذاته، وتحديدًا من كتاب هذا الدِّين (القرآن الكريم) الذي لا ينافسه أي كتاب آخر لدى العرب المسلمين. هذه المكانة العالية التي يشغلها الكتاب حفَّزت الجهود على إنتاجه مبكرًا حتى ليمكن القول إنه وهذه "الحضارة" قرينان بدآ معًا.

وقد عرفت الخبرة المصريَّة والعربيَّة والإسلاميَّة المعاصرة مشروعين في هذا السياق هما:

المشـــروع الأول: مشـروع تـراث الإنسـانيَّة الـذي أطلقتـه وزارة الثَّقافـة المصريَّة سنة 1381هـ - 1962م، وخصَّصت له دوريَّة شهريَّة وعيَّنت له هيئة مشرفة تولَّى رئاستها عدد من رموز الثَّقافة المصريَّة والعربيَّة المعاصرين من أمثـــال: عبـــاس العقـــاد (ت 1383هـــ=1964م) وزكـــي نجيـــب محمـــود (ت1414هـ=1993م) وغيرهما.

وقد تميَّز هذا المشروع بانفتاحه على النَّماذج المعرفيَّة المختلفة والثقافات واللُّغات المتنوعة.

المشروع الثَّاني: مشروع أهم الكتب التي أثَّرت في فكر الأمة في القرنين التاسع عشر والعشرين (الرابع عشر والخامس عشر للهجرة).

وقد كان الدافع وراء إطلاق هذا المشروع الذي نهض به مكتب المعهد العـالمي للفكـر الإسـلاميّ بمصـر ممـثلًا فـي مركـز الدِّراسـات المعرفيَّـة، وتـولى الإشراف عليه: د. عبد الحميد أبو سليمان (ت 1442هـ=2021م) ود. رفعت العوضي (1357هـ= 1938م) ود.عبد الرحمن النقيب (ت 1442هـ=2021م).

وفحـص المشـروع يكشـف عـن هـدف واضـح يتوجـه إلـى تجـاوز حالـة التراجع الحضاريّ والضعف، والعيالة على الحضارة الأجنبيَّة المعاصرة، يقول د. عبد الحميد أبو سليمان في مقدمة المجلد الأول من المشروع [أهم الكتـب التـي أثَّرت فـي فكـر الأمـة، (محـدد الفقـه والقـانون، والثَّقافـة الإسـلاميَّة) إشراف د.عبد

الحميد عبد الرازق، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، مكتبة مصر، ودار الكلمة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1438هـ=2017م]: (ص6)

"إن السبب فيما تعاني منه الأمة الإسلاميَّة اليوم هو فكر الأمة وما أصاب هذا الفكر من تسطيح وانحراف".

ويقول عن المشروع: (ص6):

"هو عمل فكري يغوص في جذور فكر الأمة بهدف معرفة منابع القوة واستحضارها أمام مفكري هذا الجيل وشبابه، ولمعرفة الجيد منه مما كان له أثر محمود، والغث مما كان له أثر سلبي غير مرغوب".

وهذا العمل الفكري يهدف إلى (ص6):

"أن ندرك أسباب ما نحن فيه من حال، ولماذا صار حالنا إلى ما نرى؟ وكيف يمكننا أن نصلح هذا الفكر؟ وكيف يمكننا أن نسهم في إحياء حضارة أمتنا الإسلاميَّة؟ وكيف يمكننا أن نعيد إليها دورها البناء في عالم اليوم".

2/0 استمداد الخبرة المعاصرة

ومن ثَم فإنَّ التَّوقف المتأمل الفاحص لرسالة في الطريق إلى ثقافتنا لمحمود شاكر (ت 1418هـ=1997م) يستند في شرعيته إلى نوع من الاستمداد من هذه الخبرة المعاصرة بوجه عام.

يضاف إلى ذلك الاستمداد العام المستند إلى الخبرة المعاصرة السابقة نوع استمداد خاص؛ ذلك أن مشروع [أهم الكتب التي أثَّرت في فكر الأمة في فحص أعمال المحور الثاني: محور قضايا فكرية– خصص فصلًا لفحص:

رسالة في الطريق إلى ثقافتنا] (2) ص ص 513-536) نهض به د. السيد فرج:

وتقوم هذه القراءة على ثلاثة محاور هي:

أولًا- كليات الرسالة (عرض المضمون).

ثانيًا- مستويات التثاقف مع الرسالة.

ثالثًا- خطاب ما يتبقى من الرسالة.

(أولًا)

كلمات الرسالة (عرض المضمون)

1. الانتماء المعرفي لرسالة في الطريق إلى ثقافتنا

هذه نقطة مهمة جدًّا على طريق تشغيل هذه الرسالة في بناء العقل المسلم المعاصر، وقراءة الرِّسالة تكشف عن انتمائها المعرفي إلى ما يمكن تسميته بالتأريخ للعقل العربي المسلم في العصر الحديث، وما تعرَّض له من:

أ- تشوهات وضربات موجعة.

ب-تدويخ ولفت عن الطريق وإرادة اغتيال هذا العقل وهي نص في تاريخ ما تعرضت له الثَّقافة العربيَّة الإسلاميَّة، وقيامها على أصول ما قبل المنهج، وأصول المنهج وعمل اللُّغة في تشكيل هذا العقل المسلم.

وهي نص في نقد التبعيَّة والتَّغريب وتشريح التفريغ الثَّقافي، وهي نص في السيرة الذاتية التي تطلب النجاة من المنظور المعرفي.

2. الرسالة ناتج عمل المحنة الحضارية والمحنة الذاتية

هذه الرِّسالة صدرت عما يمكن أن نسميه بسياق المحنة، إن في تجليها الحضاري العام وإن في تجليها الذاتي الشخصي.

وقد قادت ظروف هذا الإنتاج إلى تنبه محمود شاكر إلى ما يلي:

أ- انتشار بلاغة التشوهات المعرفيَّة التي أحاطت بالعقل العربيّ التي وفدت على العالم العربي مع الغزو والاحتلال الغربي الذي أنتج تيارات العلمانية العربيَّة.

ب- تفشي علامات التغريب والتبعية بعد زمان طويل من ممارسة الاستهانة بالتراث العربي قصد إلى أن تعرقل سهمة الإسلام في تشكيل العقل العربي المسلم المعاصر، وهو ما تمثل في فرض اللُّغات والثَّقافات الأجنبيَّة بتأثير ممارسات الاحتلال الأجنبيّ، أسهم في تعميقها توقف المد الإسلاميّ العالمي لأسباب كثيرة.

3. الرسالة وطريق الخروج من النفق

وفحص الرسالة يكشف عن تنبهها إلى ما يمكن أن يمثِّل طريقًا للخروج من التيه، وهو الطريق الذي تتكون مساراته فيما يلي:

أ- تمايز الثَّقافة العربيَّة الإسلاميَّة المستمد من:

- الدين (رأس كل ثقافة هو الدين) بالمعنى العام.
- اللُّغة (المرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالدين).

- الأخلاق (الأصل الأخلاقي للإسلام الاصطلاحي الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم).

وهذا الاستمداد الثلاثي قائم على التداخل، وعدم الفصل بأي حال.

ب- تزييف القول بوجود ثقافة عالميَّة، وأن القول بهذا الوجود هو ***كلمة باطلة***".

وهو بهذا يترجم عن مفهوم النموذج التفسيريّ الإسلاميّ الحاكم لتصورات المسلم ورؤيته للعالم.

ج- تداخل علم العرب الذي يترجم عنه لإيمانه بأنَّ المكتبة العربيَّة كتاب واحد أنتجه الدوران حول القرآن الكريم، وأنتجه طبيعة النموذج المعرفي الإسلاميّ المائز، بمعنى أن المكتبة العربيَّة مكتبة موسوعة شموليَّة تترجم عن "شمول" الإسلاميّ على خلاف واضح جدًّا مع النَّماذج المعرفيَّة الأخرى.

(ثانيًا)

مستويات التثاقف مع رسالة في الطريق إلى ثقافتنا

تتوقف هذه القراءة الرَّاهنة أمام ثلاثة من الذين تثاقفوا مع الرسالة من منصات مختلفة.

وهذه المثاقفات هي:

1- مثاقفة عايدة الشريف الصحفية المتعاطفة مع التوجه الشاكري، المتحيزة لمقولاته وأفكاره.

وهذه النَّظرة المتعاطفة المتحيزة لمنجز شاكر من جانب عايدة الشريف جعل منها صوتًا "مادحًا يتغنى" بمقولات شاكر حول الثَّقافة وسهمة اللُّغة في تشكيل العقل العربيّ، والموقف من الاستشراق والنخبة العلمانيَّة المتغربة.

إذن تمثِّل مثاقفة عايدة الشريف امتدادًا لصوت شاكر والمدرسة المتعاطفة المتحيزة معه وهو صوت التعاطف.

2- مثاقفة د. مجدي وهبة (صوت الغضب المرتقب)

وقد اتفق مجدي وهبة مع شاكر في مسألة التفريغ الثَّقافي الذي مارسه الاحتلال الأجنبي لمصر بتأثير دانلوب.

وقد اتفق معه أيضًا في مسألة أثر التعَّمُّق في اللُّغة في تشكيل العقل العربيّ المعاصر.

ونبَّه مجدي وهبة عن اختلاف المسيحيَّة الشرقيَّة عن المسيحيَّة الغربيَّة الشماليَّة، وخلص من ذلك كلِّه إلى أن الحوار مع المسيحيَّة الغربيَّة لا جدوى منه، ولا سيما التَّأثير المزلزل الذي أحدثه الفتح الإسلاميّ للقسطنطينيّة.

وقد ترتب على ذلك إقرار مجدي وهبة تبعًا لشاكر بعجز الاستشراق عن فهم "الظاهرة" و"العلم" العربيين.

كما ترتَّب على ذلك استحالة التَّصالح مع المسيحيَّة الغربيَّة، ومن ثم عدم جدوى الحوار مع المتغرِّبين تغربًا كليًّا من النخب العلمانيَّة في الدَّاخل المصريّ والعربيّ.

3- مثاقفة د. سعد مصلوح (صوت التجاوز)

دخل د. سعد مصلوح من منظور مختلف، وإن اشترك معه في الإيمان بالإسلام، والانتماء للتراث الإسلاميّ والتعاطف معه، والانتماء الأسلوبي لمدرسة الرافعي، مدرسة البيان التي ينتمي إليها شاكر نفسه.

وتتلخص مثاقفة د. سعد مصلوح لمحمود شاكر في الرسالة فيما يلي:

أ- عمل الاستشراق شر يسكنه الخير، سعيًا للتخلص من الرؤى الأحادية التي يتترس خلفها قطاعات من التيارات السلفيَّة المعاصرة وهو نمط من عمل العقل المسلم من منصة الإنصاف.

ب- إمكان التَّصالح وارد بين الشرق والغرب تأسيسًا على استثمار المشترك الثّقافي بين ثقافات الشعوب المختلفة، ولا سيما أصول الأديان السماويَّة واحدة تتصل بالإسلام اتصالًا واضحًا.

ج- لا توجد ثقافة تتحرك أو يمكنها أن تتحرك بمعزل عن غيرها من الثقافات الأخرى، ولا سيما من المنظور المعرفي الإسلاميّ.

د- ضرورة تنويع تحصيل الألفة واللُّغات من طريق تنويع جغرافيات الابتعاث للشبيبة المسلمة إلى بلدان الغرب، وهو بهذا ينقد الأساس البيولوجي للسليقة اللُّغوية، ويؤسس للأساس الاكتسابي للُّغات.

هـ- ظهـور أصـوات غربيَّـة متعاطفـة مـع بعـض قضـايا الأمـة المسـلمة المعاصرة دليل على تعقُّد العلاقات، لإمكان التصالح – في مساحات معينة – على الأقل.

والحقيقة أن صوت سعد مصلوح في هذا السياق يبدو أكثر اتصالًا بروح النَّموذج المعرفيّ الإسلاميّ في الانفتاح على ثقافات الآخر.

وهو الأمر الذي أشار إليه ابن رشد في فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال عندما قرر أننا مأمورون أن نقرأ منجز الآخر في ضوء ما جاءنا من الوحي الكريم الخاتم.

وهذا صوت إيجابي ينتصر للسيرورة المعرفية بوصفها حقيقة صلبة تحكم حركة العالم.

و- يختلف د. سعد مصلوح أن نقد النصوص أوسع من الدائرة الفيلولوجية التي تبناها شاكر في أصول المنهج، وأصول ما قبل المنهج.

ومن ثَم فإن هذه الأصوات المتثاقفة وتنوعَها مسألة مهمة جدًّا على طريق توظيف الرسالة في التكوين المعرفي لشباب الأمة في الوقت الراهن.

(ثالثًا)

رسالة في الطريق إلى ثقافتنا: خطاب ما يتبقى

إن الحقَّ يقضي بأن يكون أهم ما ينبغي التنبُّه إليه في هذه القراءة هو محض خطاب ما يتبقى من رسالة شاكر؛ لكي يكون هو مادة التَّوظيف والاستثمار في عمليَّات التكوين الثقافي والمعرفي للعقل العربي المسلم.

وهذا الذي يبقى يتمثل فيما يلي:

أ- ضرورة فحص أثر المحنة العامّة الحضاريَّة في صناعة برامج التكوين الثقافيّ والمعرفيّ اللازمة لتشكيل العقل العربي المسلم المعاصر وينتج فحص أثر المحنة الحضارية أهمية الوعي:

- بالتراجع الحضاري، وضرورة تجاوزه.
- يتجاوز الاستهانة بالتراث؛ لأن هذه الاستهانة أثمرت ثمرات مرة في تشكيل العقل العربي المسلم.

ب- ضرورة العناية البالغة بتكوين العقل العربيّ المسلم على قاعدة تحصيل اللُّغات، واعتبار الدِّين بوصف ذلك شرطًا مؤسسًا حاكمًا لرؤية العالم.

ج- ضرورة تعظيم المشترك الثّقافي المتبقي من الإسلام، أو الدِّين العام الذي يربط بين نسخ الأديان السماوية جميعًا.

وهو المشترك المتمثل في:

- استقرار فكرة التوحيد.
- استقرار فكرة النبوة.

- استقرار فكرة الوحي وإرسال الكتب.
- استقرار نوع من المشترك في منظومات القيم الأخلاقية.

د- منجز نقد النصوص عناية بالغة تنهض على عدم استبعاد الفيلولوجيا، انتصارًا للمناهج الحداثية، وما بعد الحداثية التي تعمد إلى تقويض المرجعيات وتشظي المعنى.

وهو ما يمكن أن يفهم بشكل واضح جدًّا من دعوة شاكر إلى استثمار منجز سيبويه في الكتاب بوصفه صورة من صور توظيف النحو الرشيد الذي يجمع في طياته:

- القواعد
- والمعجم
- والبلاغة
- والدلاليات

والسياقات المتنوعة بما فيها السِّياق الأعلى الحاكم الذي شكله وصاغه الوحي الكريم في أوصال المعرفة في الأمة.

هـ- الانطلاق في عمليات تجديد تشكيل العقل العربي المسلم المعاصر من (اليقظة الفكرية" المعروفة بالغضب الإيجابيّ الذي هو علامة إخلاص وعلامة إيجابية تهدف إلى خدمة الثَّقافة العربيَّة الإسلاميَّة.

وهذه النقطة الفكريَّة المعروفة بالغضب الإيجابيّ تنهض على رعاية ما يلي:

- استعادة التحيُّز للتُّراث، وإسقاط أجواء الاستهانة به.

- دراسة الآخر، وفحص منجزه بصورة عميقة تحاصر المختلفة مع النموذج المعرفي الإسلامي، وتعزز استثمار المتفق مع هذا النموذج.
- الوعي بطبيعة الوظيفة الحضاريَّة المنوط بالأمة استعادة النهوض بها، بوصفها الأمة الشاهدة.

ومن كل ما سبق يتضح لنا أن النَّظر إلى رسالة في الطريق إلى ثقافتنا لمحمود شاكر بما هي عمل مؤسس ومركزي في الثَّقافة العربيَّة المعاصرة ما يزال قادرًا على أن يمنح الحركة الفاعلة لإعادة تجديد تشكيل العقل العربي المسلم على هدي محددات استعادة الذات – طاقات كبرى من الدعم، وطاقات كبرى من الوقود الدافع لسياسات تعزيز هذه الاستعادة الآمنة للذات.

الخاتمة

تناولت هذه الدِّراسة بالفحص قراءة في رسالة في الطريق إلى ثقافتنا لمحمود شاكر، بهدف الإجابة عن سؤال ماذا يتبقى منها على طريق تعزيز سياسات تشكيل العقل العربي المسلم قاعدة الهُوِيَّة المنتمية.

وقد توقفت هذه القراءة أمام المطالب التالية:

0- مدخل: في مديح التأمُّل والدَّرس للكتب الملهمة المعاصرة.

1- كلمات رسالة محمود شاكر أو العرض لمضمون الرسالة.

2- مستويات التَّثاقف المعاصر مع الرسالة، وقد انخرطت القراءة في تحليل مثاقفات مستوى التعاطف الذي مثَّلته عايدة الشريف، ومستوى الغضب الذي مثَّله د. مجدي وهبة، ومستوى التجاوز الذي مثَّله د. سعد مصلوح.

3- فحص خطاب ما يبقي من الرسالة.

وقد نتج من هذه القراءة حزمة من النتائج المهمة هي:

أولًا- تنوُّع مستويات التعاطف مع الرسالة كاشف عن أهميتها في التشكيل الثقافي المعاصر ولا سيما في الحالة الإسلاميَّة.

ثانيًا- مثَّلت مثاقفة د. سعد مصلوح أكثر المثاقفات إيجابية لما تمتعت به من رؤية نقدية حضارية.

ثالثًا– مثَّلت الرسالة نمطًا من الأعمال الفكريّة المؤسسة التي أنتجها الوعي بالمحنة الحضارية العامة التي أصابت الأمة المسلمة، ونتج عنها من التراجع الحضاري.

رابعًا– كشفت قراءة الرسالة وتحليلها عن حزمة مما يبقى على طريق خدمة عمليات تشكيل العقل العربي المسلم المعاصر على قاعدة الهُوِيَّة المنتمية، وتقدير اللغات والمشترك فيه والثقافات المختلفة.

المراجع

1- تقاليد المخطوط العربي، آدم جاسك، إعداد محمود محمد زكي، تقديم ومراجعة د. فيصل الحفيان، معهد المخطوطات العربيَّة، القاهرة، 2008م.

2- رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، محمود شاكر، الهيئة المصريَّة العامة للكتاب، القاهرة، 1997م.

3- غضب مرتقب، د.مجدي وهبة، ترجمة زهير علي شاكر، مطبعة المدني القاهرة، 1991م

4- في النقد اللساني.. دراسات ومثاقفات في مسائل الخلاف . د. سعد مصلوح، (مبحث: رسالة في الطرق إلى ثقافتنا، لمحمود شاكر، ص ص 13-30) عالم الكتب، القاهرة، 1424هـ= 2004م.

5- محمود شاكر.. قصة قلم، عايدة الشريف، دار الهلال، القاهرة، ع 563 نوفمبر 1997م.